آثار الشرق القديمة

أثر مصري

حالة الفلاح المصري والاديب المصري قديماً · وصف الفلاح المصري الحالي والقديم · رسم اديب من ادباء المصريين القدماء

كنا نتصفح كتاباً عن مصر وآثارها فعثرنا فيه على رسالة في غاية الاهمية كتبها اميمان وكيل مكتبة الملك سروستريس (رعمسيس) الى الشاعر بنتاور المصري احد شعراء الملك المذكور · والسبب في كتابة هذا الكتاب(١) ان الشاعر بنتاور كره صناعة الادب والشعر في ذلك الزمان فتركها وعدل عنها الى الحراثة والزراعة فانكر صديقه اميمان وكيل مكتبة الملك هذا الصنع كتب اليه الكتاب الذي نحن في صدده · وهذه ترجمته

« يأتون اليك بهذا الكتاب لابلاغك امرًا · فانه قد بلغني انك هجرت الآداب « وابتعدت عن البلاغة والتفتَّ الى اشغال الحقول وادرت ظهرك الى الكتابة السماوية · « فتأمل وافتكر بحالة الفلاح · فانه قبل ان يحصد تحمل الحشرات قسماً من القمح « وتاكل الحيوانات ما بقي · وفي الحقول امراب كثيرة من الجرد · والجراد يهجم بكثرة « والماشية تاكل والعصافير تنهب · واذا ترك الفلاح شيئًا في الحقل فان اللصوص تسرقه « وآلته تتثلم وتتحطم مع الوقت لانها من حديد · وجواده يموت وهو يجر المحراث · ثم ان « الجباة يفدون من الميناء لجباية الضرائب ومعهم اناس يحملون عصياً وزنوج في ايديهم « سعف النخل يتخذونها كسياط · فيقولون للفلاح (اعطنا قمحًا) وليس في استطاعته ان « يردهم · فانهم يوثقون يديه ويرسلونه الى الترعة وهم يدفعونه امامهم بقوة · وكذلك يوثقون « امراته على مرأى منه ويسلبون اولاده · اما جيرانه فانهم يكونون مشتغلين عنه باشغال « الحصاد · هذه هي حالة الفلاح · اما عمل الكاتب الاديب فانه امي الاعمال ولا « ضريبة عليه · فاعلم ذلك »

(١) وهذا الكتاب محفوظ الآن في متحف لندن

﴿ كاتب وناسخ مصري قديم ﴾
اكتشف تمثاله المسيو ماسبرو

فيظهر من هذا الكتاب ان حالة الفلاح المصري لم تكن في عهد الفراعنة افضل مما كانت قبل قيام المغفور له محمد علي باشا جد الاسرة الخديوية الكريمة . وان بين حالة الفلاح المصري في هذا الزمان و بين حالته في الازمنة الماضية ما بين الارض والسماء وكذلك يقال في مسألة الادب . فان الكتابة والآداب كانت معتبرة عند قدماء المصريين وغيرهم من الامم المتقدمة صناعة الهية وكان الاشوريون يعتقدون ان الآلهة هي التي علمت الناس الكتابة والقراءة . ولم يكن هذا الاعتقاد عن وهم ولكن عن شعور بشرف الكتابة واهميتها

واذا رام القراء ان يعرفوا بالنظر الاديب والفلاح المصريين القديمين فلينظروا الى الفلاح المصري الحالي والى الاديب المصري في الرسم الذي في هذا الفصل . فان الفلاح المصري لم يتغير منذ القدم . قال بعض المؤرخين . ان الزوابع السياسية والاجتماعية التي عصفت في مصر قلبت فيها كل شيء ظهرًا الى بطن وراسًا على عقب الا الفلاح المصري صاحب مصر الحقيقي وعماد ثروتها . فان هذا الفلاح بقي ثابتًا في مكانه ولم يتغير عما كان فيه من

عهد الفراعنة . اي انه لا يزال لطيفاً هادئاً ينحني لكل الزوابع التي تمرُّ فوق راسه ويخضع لكل الايدي التي تقبض على زمامه . وهو يحب ارضه كما يحب الولد امه ولذلك فهو يحرص عليها و يفتخر بامتلاكها كما انه يعير من لا يملك شيئاً منها . وهو مستجمع فضائل الامة المصرية وعليه يتوقف مستقبلها .

اما الاديب المصري القديم فقد كان متعدد الانواع فمنه الشعراء ومنه الكتاب ومنه النساخ . وكان للنساخ اهمية كبرى في ذلك الزمان لعدم وجود المطابع . وكثيراً ما عثروا في المدافن القديمة على آلات الكتابة المصرية ومعها محبرتا النساخ واحدة للحبر الاسود وواحدة للحبر الاحمر . وكانت الكتابة يومئذٍ على نوع من الورق كانوا يصنعونه من البابيروس واحياناً كانوا يضنون بالبابيروس لغلاء ثمنه ويكتبون على قطع خزفية او خشبية ما كان بلا اهمية كورقة دعوة او كتاب ودي وما اشبه

وقد نشرنا في هذا الفصل رسم تمثال اديب وناسخ مصري قديم اكتشفه المسيو ماسبرو منذ سنوات ليعرف ادباؤنا وجه رصفائهم من المتقدمين

اثر سوري

الزي السوري القديم . الزي الاناضولي . البنات الاناضوليات اقوى من الرجال
هل يجب ان نحسر على الزمن القديم

كما اننا نشرنا للادباء في الفصل السابق رسم رصيف مصري قديم ننشر للسيدات في هذا الفصل رسم « جدة » لابسة الزي السوري القديم الذي لا تزال آثاره باقية الى هذه الايام

ولا نعني بذلك انَّ نساء سوريا ما زلن يلبسن هذا الزي الغريب الذي هو اشبه باز ياء الروايات ولكنا نقول انه لا يزال في نساء سوريا بقية من ذلك الزمن القديم وهن يلبسن ذات الملابس التي يراها القراء في الرسم

اما ازياء النساء السوريات اليوم فهي كازياء النساء الاوربيات والاميركيات لانها مقتبسة منها كما اقتبس ازواجهن ازياء ازواجهن

ولكنه لا يزال في جهات الاناضول كثيرات من النساء يلبسن ازياء اغرب من زي « الجدة السورية » التي نشرنا رسمها . فقد زرنا مدينة اضاليا في الاناضول منذ بضع سنوات فرأينا نساء المسيحيين فيها متزوجات وغير متزوجات جميلات وغير جميلات يلبسن قفطاناً كقفاطين

الرجال وهو ذو اربعة اقسام قسمين يتدليان على جسم المرأة من وراء وقسمين يتدليان على جسمها من امام . ويلبسن فوق « القفطان » سترة صغيرة لا تتجاوز اثديتهن على مثال « الدامر » الذي يلبسه لابسو اللباس العربي في الشام . ويتمنطقن بزنار في وسطهن ويلبسن طربوشاً في رؤوسهن ويصففن عليه قطعاً من النقود الفضية او الذهبية ويجدلن ضفائر عديدة من شعرهن ويرخينها على ظهورهن كاذناب الحيات وفي اطرافها قطع من النقود ترنّ وتطنّ كلما خطت المراة خطوة . ولا ريب ان الذين اعتادت عيونهم ان ترتع في مناظر اللطف النسائي في مصر والشام والفت ابصارهم مشاهدة ملابس النساء الظريفة وثمار اذواقهن اللطيفة يستهجنون تلك الملابس الاناضولية كما يستهجن القاريء لباس الجدة السورية

ولكن اذا كان في ملابس بعض النساء الاناضوليات ما يدعو الى الاستهجان ففي اعمال بعض فتياتهن ما يدعو الى الاعجاب والاستحسان . فان بعض البنات الاناضوليات مسلمات ومسيحيات يعملن اعمال الرجال واشق منها . فانهن ينقلن قطع الخشب الضخمة على اكتافهن من مسافات بعيدة كانهن حيوانات للنقل . وهن يشتغلن بهذا العمل الشاق القبيح افواجاً افواجاً . وتجد الفتاة منهن حاملة على كتفها القوي قطعة الخشب الضخمة التي يتجاوز طولها اربعة امتار وهي ماشية تحت حملها بخطى ثابتة قوية والدم يكاد يفور من وجناتها فيخيل لك انك في منام اذا كنت غريباً عن البلاد . واذا كنت قد قرأت ما يقوله فلاسفة الافرنج من تحريم العمل على النساء الاوروبيات ولا سيما اذا كان شاقاً ولا يستلزم موهبة نسائية قلتَ في نفسك اين اولئك الفلاسفة ليقضوا العجب من هذا المنظر . ومع ذلك فان الفتيات الاناضوليات يكنّ مبتسمات فرحات تحت احمالهن الثقيلة . وكثيراً ما يتزاكضن ويتسابقن تحت تلك الاحمال الكريهة وهنّ منشدات مقهقهات . ذلك لانهن يشتغلن ليحصلن « دوطة » لهن ومتى جمعن هذه الدوطة تركن العمل وتزوجن وعشن مستريحات . فبارك الله في هذه الهمة التي تدل على مبلغ ما في نفوس النساء الاناضوليات من العزيمة والنشاط

ولا ريب عندنا ان كثيرين من قرائنا في سوريا اذا وقعت انظارهم على رسم « الجدة السورية » يتنهدون من اعماق صدورهم . اما القارئات فانهن يتنهدن لانهنّ يشكرن الله تعالى على انقاذهن من ذلك الزي المخيف : تلك العمامة التي هي كالغمامة . والمقص المعلق بها كعصفور على شجرة . والجزمة التي تثقل القدمين كقيد من حديد . ونول

﴿امرأة سورية بالزي السوري القديم﴾

الحياكة وملف الحرير الذي كان شغل المرأة الشاغل في ذلك الزمان . والنرجيلة الهائلة التي لا تأنف — وا أسفاه — كثيرات من السوريات وغير السوريات من التدخين بها حتى اليوم . والقفطان الذي هو كثير الشبه بقفطان النساء الاناضوليات . هذا فضلاً عن عبوديتهن القديمة للرجال

واما القراء الذين يتنهدون لهذا الزي فانهم يتنهدون لانهم يذكرون زمناً قد مضى وهم ياسفون عليه . وسبب اسفهم عليه عدم رضائهم عن الزمن الحاضر . فان من كان يملك منهم في ذلك الزمن مائة جنيه كان كمن يملك ثلاثة الاف جنيه في هذه الايام . لان اردب القمح كان يُباع بعشرة غروش وكل حاجيات المعيشة كانت رخيصة الثمن على هذا

المنوال . وفضلاً عن ذلك فقد كانت النفس راضية بالقليل مكتفية بالموجود الحاضر . وكان الرجل سيداً مطلقاً في البيت واقرب شيء الى يده العصا لتاديب امراته . وكانت هـذه المراة عبدة حقيقية لا تخرج الا محجبة ولا تجالس رجلاً ولا تخاطب احداً غير زوجها الا من وراء حجاب كاخواتهن المسلمات اليوم . غير ان العادات والاخلاق كانت الطف وابسط منها اليوم كما يزعم الشيوخ الذين شهدوا تلك الايام . وهم يزعمون ايضاً ان الامراض كانت اقل واخف وطأة . ولكن هذا الزعم والذي تقدمه يحتاجان الى اثبات . ويردُّ الاطباء على الزعم الثاني بقولهم ان الامراض كانت مجهولة لا معدومة وكان الناس يسمون كل مرض حمى فلما انتشر الاطباء وسموا الامراض باسمائها الحقيقية ظن البسطاء انها تعددت . وقس على ذلك باقي شؤون الحياة .

اما نحن فلا نجهل ان المعيشة في ذلك الزمان كانت اسهل وابسط مما هي اليوم والناس كانوا اقرب الى الاخاء البشري والبساطة الطبيعية ولكننا نعتقد ان الذين ياسفون على الايام الماضية انما ياسفون اسف الشيخ الذي يتحسر في شيخوخته على شبابه وان كان في شيخوخته اهنأ بالاً مما كان في شبابه واحسن حالاً . فمن يتحسر اليوم على زمن الجدة السورية فليتحسر عليه ولكن دون ان يتمنى الرجوع اليه .

صفحة الشعر

﴿ قوة نساء العرب وسرعة جوابهن ﴾

يعزُّ على الكاتب اليوم اذا رام تفكهة قرائه بشيء من الشعر ان يرى نفسه مضطراً للرجوع الى ما جاء في الكتب القديمة . وليس يعزُّ عليه ذلك لان ماجاء في هذه الكتب مهمل لا يستحق النشر ولكن لانه لا ينطبق على شؤون العصر وحاجاته ولذلك فهو قلما يكون ذا تاثير في نفس القارىء . غير ان الرواية الشعرية التي نرويها الآن نقلاً عن المسعودي جديرة بان تلذَّ القراء فضلاً عن دلالتها على ما كان للنساء في ذلك الزمان من المكانة من البلاغة وسرعة الجواب . وهذه خلاصتها . قال يزيد الرقاشي

سمرتُ ذات ليلة عند السفاح (وهو ابو العباس عبدالله بن محمد اول الخلفاء العباسيين) فقال يا يزيد اخبرني باظرف ما سمعته من الاحاديث فقلت : يا امير المؤمنين . نزل